قال ابن إسحاق: وَكَانَ أَبُو طالبٍ هُوَ الَّذِي يَلِي أَمْرَ رسولِ اللهِ صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بَعْدَ جَدِّهِ؛ فكَانَ إِلَيْهِ وَمَعَهُ [١٣١].

قال (٣٢/ ب) ابن إسحاق: وحدثني يَحْيى بن عَبَّاد بن عبد الله بن الزُّبَيْر، أن أباه حدثه، أن رَجُلاً من لَهَبٍ (قال ابن هشام: ولَهَبٌ من أزْد شنوءة) كَانَ عَائِفاً[1] فكان إِذَا قَدِمَ مَكَّةَ أَتَاهُ رِجَالُ قُرَيْشٍ بغلمانِهِمْ يَنْظُرُ إِلَيْهِمْ، وَيَعْتَافُ لهم فيهم، قال: فَأَتَى بِهِ أَبُو طَالِبٍ ـ وهو غلام ـ مَعَ مَنْ يأتيه؛ فَنَظر إِلَى رَسولِ اللهِ صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ثم شَغَله عنه شيءٌ، فَلَمَّا فَرَغَ قَالَ: الْغُلاَمَ، عَلَيَّ به، فَلَمَّا رَأَى أَبُو طَالِبٍ حِرْصَهُ عليه غَيَّبه عنه، فجعل يقول: وَيْلَكُمْ!! ردُّوا عليَّ الغلام الَّذِي رأيتُ آنِفاً، فواللهِ ليكونَنَّ له شَأْنٌ، قال: فانطلق أبو طالب [١٣٢].

قِصَّةُ بَحِيرَىٰ

النبي يتعلق بعمه أبي طالب ليأخذه معه إلى الشام

قال ابن إسحاق: ثم إنَّ أَبَا طالبٍ خَرَجَ في رَكْب تاجِراً إلى الشَّام، فلما تهيأ للرحيل وأجمعَ المسيرَ صَبَّ[2] به رسولُ اللهِ صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فيما يزعمون، فَرَقَّ لَهُ، وقال: والله لأَخْرُجَنَّ به معي، ولا يُفَارِقُنِي ولا أُفَارِقُهُ أَبداً، أو كما قال، فَخَرَجَ بِهِ مَعَهُ، فلما نَزَلَ الركبُ بُصْرَى من أرضِ الشَّامِ، وبها رَاهِبٌ يقال له بَحِيرَى في صومعةٍ لهُ، وكانَ إليه علمُ أهلِ النصرانيةِ، ولم يزلْ في تِلْكَ الصَّوْمعة منذ قط راهبٌ إليه يصير علمهم عن كِتَابٍ فيها، فيما يزعمونَ، يتوارثُونَهُ كَابِراً عن كَابِرٍ، فَلَمَّا نزلوا ذَلِكَ العَام بِبَحِيرَى، وكانوا كثيراً ما يمرُّون به قبلَ ذلك فلا يكلمهم ولا يعرضُ لهم، حتى كَانَ ذَلِكَ العامُ؛ فلما نزلوا به قريباً من صَوْمعته صَنَعَ لهم طَعَاماً كَثِيراً، وذلكَ ـ فيما يزعمونَ ـ عن شيء رآه وهو في صَوْمَعته: يزعمون أنه رَأَى رسولَ اللهِ صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وهو في صومعته في الرَّكْبِ حين أَقْبَلُوا وغمامَةٌ تُظِلُّه مِنْ بَيْنِ الْقَوْمِ، قال: ثُمَّ أَقْبَلُوا فنزلوا في ظل شَجَرَةٍ قريباً مِنْهُ، فَنَظَر إِلَى الغمامة حِينَ أَظَلَّتِ الشَّجَرَةَ وتهصَّرتْ[3] أغصانُ الشجرة عَلَى رَسُولِ اللهِ صَلَّى الله

---

[١٣١] ذكره الحافظ ابن كثير في «البداية والنهاية» (٢/ ٣٤٤) من طريق ابن إسحاق.

[١٣٢] ذكره الحافظ ابن كثير في «البداية والنهاية» (٢/ ٣٤٤ ـ ٣٤٥) عن ابن إسحاق.

---

(١) العائف هنا: الذي يتفرَّس في خلقة الإنسان، فيخبر بما تؤول حاله إليه.

(٢) صب به رسول الله ﷺ: أي مال إليه. ورق قلبه له، ومن رواه: ضبَّ، فمعناه: تعلَّق به وامتسك.

(٣) تهصَّرت أغصان الشجرة: أي مالت وتدلت، تقول هصرت الغصن، إذا جذبته إليك حتى يميل.

عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حتَّى استظل تحتها، فلمَا رَأَى ذَلِكَ بَحيرى نزل من صَوْمعته وقد أمر بذلك الطعامَ فَصُنِعَ، ثم أَرْسَلَ إليهم، فقال: إني قد صنعت لكم طَعَاماً يا معشرَ قريشٍ؛ فأنا أُحِبُّ أَنْ تَحْضُروا كلُّكم صغيرُكم وكبيرُكم وعبدُكم وحُرُّكم، قال له رجل منهم: واللهِ، يا بحيرى، إنَّ لك لشأناً اليومَ ما كنتَ تصنعُ هذا بِنا وقد كنا نمر بِكَ كثيراً!! فما شأنُكَ اليومَ؟ قال له بحيرى: صدقت، قد كان ما تقولُ، ولكنكم ضَيْفٌ وقد أحببت أَنْ أكرمكم وأصنعُ لكم طعاماً فتأكلوا منه كلكم؛ فاجتمعوا إليه، وتخلَّف رسولُ اللهِ صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من بين القوم ـ لحداثةِ سِنِّهِ ـ في رِحَالِ القوم تَحْتَ الشجرةِ، فلما نَظَر بحيرى في القوم ولم ير الصِّفَة التي يَعرفُ ويجدُ عنده قال: يا معشرَ قريشٍ، لا يتخلفنَّ أحد منكم عن طعامي، قالوا له: يا بحيرى، ما تخلَّف عنك أحدٌ ينبغي له أن يأتيك إلا غُلاماً وهو أَحْدثُ القوم سِنًا فتخلَّف في رحالهم، فقال: لا تفعلوا، ادْعُوه فلْيَحْضُرْ هذا الطَّعَامَ معكم، قَالَ: فقال رجل من قريش مع القوم: واللاَّتِ وَالْعُزَّى إنْ كان لَلُؤْمٌ بنا أَنْ يتخلَّف ابنُ عبد الله بن عبد المطلب عن طَعَام مِنْ بيننا، ثُمَّ قامَ إليه فاحتضنه[1]، وأجْلَسَهُ مَعَ القَوْمِ، فلما رآه بحيرى جعل يلحظه لَحْظاً شَدِيداً، وينظرُ إِلَى أشياءَ مِنْ جَسَدِهِ، وقد (٣٣/أ) كان يجدها عنده من صفته، حتَّى إِذَا فَرَغَ القومُ من طعامهم وتفرقوا قامَ إليه بحيرى فقال له: يا غُلامُ، أسألك بحقِّ اللاتِ والعُزَّى إلا ما أخبرتني عما أسألك عنه، وإنما قال له بحيرى ذلك لأنه سمع قومه يحلفون بهما؛ فزعموا أَنَّ رَسُولَ اللهِ صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «لاَ تَسْأَلْنِي بِاللاَّتِ وَالْعُزَّى شَيْئاً، فَوَاللهِ مَا أَبْغَضْتُ شَيْئاً قَطُّ بُغْضَهُمَا» فقال بَحيرى: فباللهِ إلا ما أخبرتني عما أَسْأَلُكَ عَنْهُ، فقال له: «سَلْنِي عَمَّا بَدَا لَكَ» فَجَعَلَ يسأله عن أشياء من حاله: مِنْ نَومِهِ، وهيئتِهِ، وَأُمُورِهِ؛ فجعل رسولُ اللهِ صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يخبره، فيوافق ذلك ما عند بحيرى من صفته، ثمَّ نَظَر إلى ظهره فرأى خاتم النبوة بين كتفيه على موضعه من صفته التي عنده.

قال ابن هشام: وكان مِثل أثر المحجم[2].

بحيرى ينصح لأبي طالب بالعودة بالنبي

قال ابن إسحاق: فلما فَرَغَ أقبل على عمه أَبِي طَالِبٍ فَقَالَ لَهُ: ما هذا الغلام منك؟ قال: ابني، قال له بحيرى: ما هو بابنك، وما ينبغي لهذا الغلام أن يكون أبوه حَيًّا، قال:

---

(١) فاحتضنه: أي أخذه مع حضنه أي مع جنبه.

(٢) المِحْجَمُ: الآلة التي يحجم بها، والحجم: المصدر. وقال السهيلي: يعني أثر المحجمة القابضة على اللحم حتى يكون ناتئاً، وفي الخبر أنه كان حوله خيلان فيها شعرات سود.

فإنه ابن أخي، قال: فما فعل أبوه؟ قال: مَاتَ وأمه حُبْلى به، قال: صَدَقْتَ فارجع بابن أخيك إلى بلده، واحْذَرْ عليه يهود، فواللهِ لئِنْ رأَوْه وعَرَفُوا منه ما عَرَفْتُ لَيَبْغُنَّهُ شَرًّا، فإنه كائن لابن أخيك هذا شأنٌ عظيم، فأسْرِعْ به إلى بلادِهِ؛ فخرج به عمه أبو طَالِبٍ سَرِيعاً حَتَّى أقدمه مكةَ حين فرغ من تجارته بالشأم.

قوم من أهل الكتاب يحاولون إيذاء النبي فيردهم بحيرى

فزعموا، فيما روى النَّاسُ، أن زُرَيْراً وتَمّاماً وَدَرِيساً ـ وهم نَفرٌ من أهل الكتاب ـ قد كانوا رأوا مِنْ رَسُولِ اللهِ صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِثْلَ ما رآه بحيرى، في ذلك السَّفَرِ الذي كان فيه مع عمه أبي طالب، فأرادوه، فَرَدَّهُم عنه بحيرى، وذكَّرهم اللهَ وما يجدون في الكتاب من ذكره وصفته، وأنهم إن أجْمَعُوا لما أرادوا به لم يَخْلُصوا إليه، ولم يزل بِهِمْ حَتَّى عرفوا ما قَالَ لَهُمْ، وصَدَّقوهُ بِمَا قَالَ، فتركوه وانصرفوا عنه [١٣٣].

كلاءة الله تعالى نبيه وحفظه منذ نشأته

فَشَبَّ رسولُ اللهِ صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ واللَّهُ تعالىٰ يَكْلَؤُه ويَحْفَظُه ويَحُوطه من أقذارِ الجاهلية؛ لما يريد به مِنْ كَرَامَتِهِ وَرِسَالَتِهِ، حَتَّى بَلَغَ أنْ كَانَ رَجُلاً أفضلَ قومه مروءةً، وأحسنَهُمْ خُلُقاً، وأكْرَمَهُمْ حَسَباً، وَأَحْسَنَهُمْ جِوَارا، وأعظمهم حلماً، وأصْدَقَهُمْ حديثاً، وَأعظمهم أمانة، وأبعدهم من الفُحْشِ والأخلاقِ الَّتِي تَدْنَسُ الرِّجَالَ نَنَزُّهاً وتَكَرُّماً، حَتَّى ما اسمه في قَومِهِ إلاَّ «الأمين» لِمَا جَمَعَ الله فيه من الأُمورِ الصَّالِحَةِ.

---

[١٣٣] أخرجه البيهقي في «دلائل النبوة» (٢/ ٢٦ ـ ٢٩) من طريق ابن إسحاق به. وذكره الحافظ ابن كثير في «البداية والنهاية» (٢/ ٣٤٥ ـ ٣٤٦) من طريق ابن إسحاق وقال: هكذا ذكر ابن إسحاق هذا السياق من غير إسناد له وقد روى نحوه من طريق مسند مرفوع اهـ. قلت: أما الطريق المسند المرفوع والذي أشار إليه الحافظ ابن كثير فأخرجه ابن أبي شيبة (١١/ ٤٧٩) كتاب الفضائل: والترمذي (٥/ ٥٩٠) كتاب المناقب: باب ما جاء في بدء نبوته ﷺ حديث (٣٦٢٠) والحاكم (٢/ ٦١٥ ـ ٦١٦) والبيهقي في «دلائل النبوة» (٢/ ٢٤ ـ ٢٦) وأبو نعيم في «الدلائل» رقم (١٠٩) والخرائطي في «الهواتف» كما في الخصائص الكبرى (١/ ١٤١) و«البداية والنهاية» (٢/ ٣٤٦) كلهم من طريق عبد الرحمن بن غزوان بن نوح قراد أخبرنا يونس بن أبي إسحاق عن أبي بكر بن أبي موسى عن أبيه به. وقال الترمذي: هذا حديث حسن غريب لا نعرفه إلا من هذا الوجه. وقال الحاكم: صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه وتعقبه الذهبي فقال: أظنه موضوعاً وبعضه باطل. وقال السيوطي في «الخصائص الكبرى» (١/ ١٤٢) إلا أن الذهبي ضعف الحديث لقوله في آخره وبعث معه أبو بكر بلالاً فإن أبا بكر لم يكن إذ ذاك متأهلاً ولا اشترى بلالاً وقد قال ابن حجر في «الإصابة» الحديث رجاله ثقات وليس فيه منكر سوى هذه اللفظة فتحمل على أنها مدرجة فيه مقتطعة من حديث آخر وهما من أحد رواته.

وكانَ رسولُ اللهِ صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فِيمَا ذُكِرَ لِي، يحدِّث عَمَّا كانَ الله يَحْفَظُهُ به في صِغَرِهِ وأَمْرِ جاهليته أنه قال: «لَقَدْ رَأَيْتُني في غِلْمَانِ قريشٍ نَنْقُلُ حجارةً لبعضِ مَا يَلْعَبُ به الغِلْمَانُ، كُلُّنَا قد تَعَرَّى وأخذ إزَارَهُ فجعله عَلَى رَقَبَتِهِ يَحْمِلُ عليه الحِجَارَةَ: فإني لأُقْبِلُ مَعَهُم كذلك وأُدْبِرُ إذْ لَكَمَني[1] لاكم ما أراهُ لكمةً وجيعةً؛ ثم قال: شُدَّ عَلَيْكَ إزَارَكَ، قال فأخذتُهُ وشَدَدْتُه عليّ، ثم جعلت أَحْمِلُ الحِجَارَةَ عَلَى رَقَبَتِي[2]، وَإزَارِي عليَّ مِنْ بَيْنِ أَصْحَابِي» [١٣٤].

حَرْبُ الْفِجَارِ

قال ابن هشام: فَلَمَّا بَلَغَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَرْبَعَ عَشْرَةَ سَنَةً، أو خَمْسَ عَشْرَةَ سَنَةً، فيما حدثني أبو عُبَيْدة (٣٣/ب) النحويُّ، عن أبي عمرو بن العلاء؛ هاجَتْ حربُ الفجارِ[3] بين قريش ومن معها من كِنَانَةَ، وبين قَيْس عَيْلاَنَ.

---

[١٣٤] أخرجه البيهقي في «دلائل النبوة» (٢/ ٣٠ ـ ٣١) من طريق ابن إسحاق به. وذكره ابن كثير في «البداية والنهاية» (٢/ ٣٤٨ ـ ٣٤٩) عن ابن إسحاق. وينظر «سبل الهدى والرشاد» (٢/ ١٤٧).

---

(١) لكمني: أي لكزني.

(٢) قال السهيلي: هذه القصة إنما وردت في الحديث الصحيح في حين بنيان الكعبة، كان عليه السلام يحمل الحجارة وإزاره مشدود عليه، فقال له العباس: يا ابن أخي، لو جعلت إزارك على عاتقك ففعل، فسقط مغشيًا عليه، ثم قال: إزاري، إزاري، فشد عليه إزاره، وقام يحمل الحجارة، وفي آخر أنه لما سقط ضمه العباس إلى نفسه، وسأله عن شأنه فأخبره أنه نودي من السماء أن اشدد إزارك يا محمد، وإنه لأول ما نودي ولعل هذا وقع له ﷺ مرتين: في حال صغره، وعند بنيان الكعبة» اهـ. ومن ذلك ما ذكره صاحب عيون الأثر بسنده وابن عساكر يصل به إلى علي رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «ما هممت بشيء مما يهم به أهل الجاهلية إلا مرتين من الدهر، كلتاهما عصمني الله عز وجل منهما، أي: من فعلهما، قلت ليلة لفتى كان معي من قريش بأعلى مكة في غنم لأهله يرعاها: أبصر لي غنمي حتى أسمر هذه الليلة بمكة كما يسمر الفتيان، قال: نعم، فخرجت، فلما جئت أدنى دار من دور مكة سمعت غناء، وصوت دفوف، ومزامير، فقلت: ما هذا؟ فقالوا: فلان تزوج فلانة، لرجل من قريش، فلهوت بذلك الصوت، حتى غلبتني عيني. فنمت، فما أيقظني إلا مس الشمس، فرجعت إلى صاحبي، فقال: ما فعلت؟ فأخبرته، ثم فعلت الليلة الأخرى مثل ذلك؛ فقال رسول الله ﷺ: ما هممت بعدها بسوء مما يعمله أهل الجاهلية، حتى كرمني الله عز وجل بنبوته».

(٣) الفِجَار بكسر الفاء بمعنى المفاجرة، كالقتال بمعنى المقاتلة، وذلك أنه كان قتالهم في الشهر الحرام ففجروا فيه جميعاً فسمي الفجار. وكانت للعرب فجارات أربع ذكرها المسعودي.
يوم شَمْطة: بشين معجمة مفتوحة فميم ساكنة فظاء معجمة.
يوم العَبْلاء: بعين مهملة مفتوحة فباء موحدة ساكنة فلام فألف ممدودة. =